الجوانب الثقافية للترجمة
مقاربة لبعض المفاهيم الأساسية

المؤلف: جون-لويس كوردوني* ترجمه: محمد داود **

RÉSUMÉ

La problématique de la culture constitue désormais un champ de recherche primordial pour travailler à une théorie de la traduction. On se situe ici au niveau du sol archéologique, c'est-à-dire au niveau des modes d'être de la culture, et de leurs interactions avec les modes de traduire. La traduction n'étant jamais une opération neutre, il convient de mettre en évidence les interventions du traducteur réalisées dans le cadre de son appartenance à telle ou telle culture. Mais il ne faut pas non plus réifier la culture, et il faut mettre en relief également les interventions d'ordre purement individuel. Cette relation à la culture est d'une grande importance puisque le traducteur, étant au cœur des relations d'altérité, constitue de par son activité traduisante, l'identité de sa propre culture. Il s'agit de passer aujourd'hui d'un ethnocentrisme négatif, procédant à l'effacement de l'Autre, à un ethnocentrisme positif réalisant par la «montre» de l'Autre, la tâche de constitution de l'identité propre. Ce dévoilement *pour* l'identité passe par la critique de la dichotomie par trop simpliste «cibliste/sourcier», qui est prisonnière de la langue. Le traducteur se donnera en revanche comme tâche, la « montre » du discours de l'Autre. Cette problématique interculturelle est examinée à travers cinq champs clés dans lesquels se déploie l'activité traduisante : altérité, histoire, critique, éthique et tâches de la traduction.

Mots clés :

Théorie de la traduction, Culture, Ethnocentrisme, Interculturalité, Altérité, Histoire, Critique, Ethique.

الملخّص: تمثل إشكالية الثقافة منذ الآن، حقلا أساسيا لأجل الاشتغال على نظريّة الترجمة. إذ أنّنا نتموقع في مستوى التربة الأركيولوجية؛ أي على مستوى أساليب الوجود التي تميز الثقافات في تفاعلاتها مع أساليب الترجمة. وباعتبار أنّ الترجمة لن تكون أبدا عملية حيادية؛ فإنّه يتعيّن علينا إبراز تدخّلات المترجم والتي ينجزها في إطار انتمائه لهذه الثقافة أوتلك. ولا يجب إذًا تشييء الثقافة؛ بل علينا أيضا إظهار التدخّلات ذات الطابع الفردي المحض. وبما أنّ العلاقة مع الثقافة هي من الأهميّة بمكان وكون المترجم يقع في صلب علاقات الغيرية؛ فإنّه يشكلّ من خلال نشاطه الترجمي هوية لثقافته الأصلية. ويتعيّن علينا اليوم الانتقال من إثنومركزية سلبية تقوم على طمس الآخر، إلى إثنومركزية إيجابية تنجز من خلال إظهار الآخر، مهمّة من مهام تشكيل الثقافة الأصلية. إنّ الكشف لأجل الهوية يمرّ عبر نقد الثنائية المفرطة في التبسيط بين "أنصار اللّغة الهدف – وأنصار اللّغة المصدر"، التي هي سجينة اللّغة. فعلى المترجم، من جهته، أن يتكفّل بمهمّة "إبراز" الآخر. وسنقوم بفحص هذه الإشكالية المتداخلة ثقافيا

من خلال خمسة حقول مفتاحية التي يتجلى عبرها النشاط الترجمي وهي: الغيرية والتاريخ والنقد والأخلاق ومهام الترجمة.

الكلمات الدّالة:نظريّة الترجمة، الثقافة، الإثنومركزية، التداخل الثقافي، الغيرية، التاريخ، النقد، الأخلاق.

سنبدأ بملاحظة أولية قد تبدو بديهية لدى المتخصص؛ لكنّ أهميتها تقتضي، من وجهة نظرنا، إعادة تأكيدها مرارا وتكرارا؛ إذ يتمثل ذلك في كوننا ندرك أنّ الذرائع التي تهيمن وتبرّر تعذّر الترجمة تتردّد كثيرا بحكم التقليد والتجريب، من ملتقى لآخر، وضمن هذا مقال أو ذلك، من مثل: "تبدو هذه العبارة غريبة عن اللّغة الفرنسية "، أو "رائحة الترجمة تفوح منها"، أو مرّة أخرى " إنّ القارئ لن يفهم جيّدا النص المترجم"، وهي ذرائع أو حجج يتمّ تحديدها داخل اللّغة وبالتالي لا تشمل الخطاب (بالمعنى الذي يعطيه له "بنفينيست" (Benveniste)، وهي حجج كابحة لجميع الإمكانيات التي تميز إعادة الكتابة في العملية الترجمية. وتدلّ هذه الملاحظة على أن الترجمة ليست عملية لغوية فحسب؛ بل عليها أن تفحص ضمن مجموعة من العلاقات المتداخلة اجتماعيا وثقافيا، وفي إطار ثقافتها الأصلية في البداية وفيما بين الثقافات الأجنبية المقابلة لها لاحقا. ولهذا تلعب العناصر الثقافية دورا كبيرا في الترجمة بصفة عامّة، وضمن ما يسمى عادة بالترجمة العلمية والتقنية، ولو أنّ مقام هذا النوع من الترجمة غير مناسب لتجلي الرهانات الثقافية بشكلّ حاد.

ولابدّ لنا، بالمناسبة، من إسداء التحية لزملائنا من الجامعة التقنية لمدينة (يلدز) الذين خصّصوا ملتقى كبيرا للجوانب الثقافية للترجمة؛ فمثل هذه اللقاءات، التي تخصّص كلّيا لمثل هذه الموضوعات على كلّ حال لم تكن معتادة وبهذه الصورة منذ فترة قريبة[1]. والجدير بالتذكير أنّ (جورج مونان) (Georges MOUNIN) قد تقدّم منذ أربعين سنة تقريبا في الفصل الثالث عشر من كتابه "المسائل النظرية للترجمة"، بمسألة نظرية يذكرها كالتالي: " لا بدّ من توفّر شرطين لترجمة لغة أجنبية، وكلّ شرط ضروري إذ لا يكتفي أحدهما بذاته؛ أي دراسة اللّغة الأجنبية، ودراسة (بشكلّ منهجي) إثنوغرافية الجماعة التي تعبر عنها اللّغة المترجمة. ولن تكون ترجمة ما ملائمة كلّيا ما لم تستجب لهذين الشرطيين" (مونان، 1963: 236). وبطبيعة الحال؛ يكون من الأفضل أن تستدعى علوم إنسانية أخرى للاشتغال على علم الترجمة ذي الأوجه المتعددة، ونقصد بذلك وعلى وجه الخصوصّ، الأدب والتاريخ وعلوم اللّغة والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس التحليلي والفلسفة.

وفي هذا الصدد لابدّ من الإقرار بتأخّر الاستجابة لنداء (جورج مونان)؛ وذلك منذ سنة 1963، تاريخ نشر كتاب "المسائل النظرية للترجمة". وإذا كانت لدينا مجموعة كبيرة من المقالات التي لها علاقة بالجوانب الثقافية للترجمة، فلا نملك إلاّ القليل من الكتب التي حاولت أن تحيط بالإشكالية الثقافية في مجملها وأن تجد لها صلة بإشكاليات الترجمة. بينما وبفرنسا فقد ذكر "ميشونيك" (Meschonnic) في إطار بحثه حول الشعرية ومن خلال ابتكاره لمفهوم "اللّغة -الثقافة": أنّ اللّغة وثقافتها تشكلّان كلاّ لا يتجزّأ، وورد ذلك في أحد كتبه الصادر سنة 1973. إنّ دراسات "ميشونيك" معروفة بما يكفي، الأمر

الذي يجعلنا لا نتوقف عندها كثيرا؛ لكنّ نريد فقط الإشارة إلى رغبة هذا المنظر في تحليل الترجمة ضمن أطار واسع يضمّ التاريخ والأدب واللّغة والسياسة. وفضلا عن ذلك؛ فقد كان لكتاب أنطوان برمان (A. Berman) الصادر سنة 1984 أهميّة كبرى؛ إذ لفت انتباه المترجمين وعلماء الترجمة، في إبانته عن الدور الذي قد منحه تيار ثقافي كلّيا للترجمة، وهو التيار ذاته الذي ابتكره الرومانسيون الألمان. وقد حاولنا من جهتنا وضع الترجمة ضمن الإشكالية الثقافية. لقد أعطينا، من خلال إبراز الفائدة التي تكمن في التفسير الأركيولوجي للترجمة وفي وضع ممارسة الترجمة في إطار أخلاقي، نظرة تركيبية لكنّها غير شاملة للمشاكلّ التي تواجه المترجمين في ترجمة الأعمال الأدبية، غايتنا في ذلك الإشارة إلى التوجهات التي تتخذها الأعمال والأبحاث في هذا الحقل، ("كوردوني" Cordonnier 1995).

ونطمح في حدود هذا العرض، أن نقدّم التوضيحات اللازمة لخمسة مفاهيم مفتاحية والتي تشكلّ أيضا حقولا مفتاحية، يبدو لنا أنّه من الأهميّة بمكان أن تكون مستقبلا محلّ التثمين الاجتماعي للنشاط الترجمي، وأيضا محلّ التفكير النظري حول الترجمة من خلال المفاهيم التالية: الغيرية والتاريخ والنقد والأخلاقيات ومهام الترجمة[2].

إنّ الاعتبارات التي سنتطرق لها لاحقا ترتبط بالأعمال الأدبية؛ أي بتلك النصوصّ التي تتميز بالإبداع، وتمثّل جوهر كلّ ثقافة، وتشكلّ جذورها، وتنشئ الخطاب (بالمعنى الذي يمنحه له "بنفينيست")، من خلال فعل الكتابة الذي يخترقها، وهي بذلك تعيد انتشار الثقافة في اتجاه آفاق أخرى أكثر رحابة كما ترفع بعدئذ من شأنها. ويتعلّق الأمر بتحفظ منهجي يمكّننا من عدم الانغلاق فيما يسمى تقليديا "الأدب". ممّا يدفع بنا إلى إدراج أعمال تنتمي إلى المجال العلمي ضمن حقل بحثنا، كوننا نتعامل مع نصوص تتجلى فيها شعرية لذات-كاتبة (بالمعنى الذي يمنحه "ميشونيك")، أي شعرية لا تختصّ إلاّ بهذا الكاتب.

وبالمناسبة يسمح لنا عنوان الملتقى بفتح المجال على مصراعيه لإمكانية فهم مصطلح الثقافة. وبهذا الصدد، يمكننا أن ندرك أنّ "الجوانب الثقافية" تشير إلى المعاني والسّمات الثقافية وأيضا إلى مسألة انتقالها إلى لغة الترجمة؛ ولكنّ اليوم هذه القضايا لا تدخل في انشغالاتنا؛ إذ علينا أن نفهم أيضا، على أنّ الثقافة تتدخل في أساليب الترجمة، وفيما يخصّنا سنذهب في هذا الاتجاه فيما سنعرضه عليكم، كون الترجمة هي عملية ثقافية بشكلّ كلّي؛ بمعنى أنّنا لا نترجم وبالطريقة نفسها داخل الثقافات، وزيادة على ذلك أنّ هناك تفاعل قوي بين أساليب الترجمة وبين أشكال تجلي الثقافات. فالترجمة ليست نشاطا معزولا؛ بل إنّها تتشكلّ ضمن ترابط مع أنواع أخرى ذات أهميّة تتحكم في مصير الأعمال الأدبية، مثل النقد والتعليق والتحليل. وهي بهذا المعنى إذا، جزء لا يتجزأ من تقليد ثقافي يرتبط بعملية البناء لجوهر ثقافة ما.

والجدير بالذكر أنّ مفهوم الثقافة يتميز بالتعقيد[3]؛ لكنّنا سنعتمد في عرضنا هذا على المعنى المتداول؛ أي الطرق المشتركة في العيش والتفكير لجماعة معينة التي تدفع بأفراد هذه الجماعة إلى

التصرف ضمن أوضاع اجتماعية معيّنة بشكلٍ مشترك؛ بمعنى أنّنا نحيل على ما سماه (ميشال فوكو) (Michel Foucault) سنة 1996 ب"أساليب العيش" في ثقافة ما. ويبدو لنا أنّه من المستحسن إيلاء أهميّة كبرى لأساليب العيش والوجود القائمة، كونها تستدعي لدى المترجمين أساليب ترجمية قد تكون مشتركة نسبيا في مراحل معيّنة من تكوين الثقافات، وهي أيضا أساليب ترجمية مرتبطة بالإكراهات الاجتماعية الضاغطة على المترجمين. وفي هذا الشأن، يخطر على بالنا التكوين اللساني والثقافي والسياسي للدول-الأمم بأوروبا. ولهذا نحدّد تفكيرنا حول هذه المسائل في إطار الثقافة الفرنسية وبصفة أوسع في الثقافة الغربية؛ حيث إنّ الدول-الأمم بأوروبا قد شكلّت نثرها وآدابها على أساس الترجمات، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى، وهو الوجه الثاني لمفهوم الثقافة الذي نحيل عليه في هذا المقام؛ أي بالتحذير من عدم تشئي الثقافة؛ لأنّها ليست تجريدا وبناء فكريا فحسب (أنظر كوش (Cuche)، 1996: 57)؛ بل علينا أن نأخذ الممارسات الفردية بعين الاعتبار ولاسيما موقف المترجم في علاقته الغيرية مع الأجنبي، ومن خلال التصور الذي يملكه عن الدور الذي ستلعبه ثقافته الأصلية في علاقاتها مع الآخرين؛ أي تلك العلاقة الجدلية، والتي ستمثل إطارا لعرضنا هذا، بين الثقافة والفرد؛ أي المترجم بالنسبة لنا.

الغيرية: تبرز الترجمة ضمن علاقات الغيرية، ويجد المترجم نفسه وجوبا أمام مهمّة نقل القيم والوقائع الثقافية؛ لكنّ دوره لا يتوقف عند هذا الحد: "فالمترجم ليس ذلك المنقب على الاختلافات فحسب والمكتشف للأقاليم الثقافية المجهولة؛ بل إنّه، بتعرّفه على الآخر، يقوم بتغيير رؤى جماعته، وكما قال (ملارمي) (Mallarmé) في عبارته المشهورة (1887). يزعج "كلّمات عشيرته". [...] وبعيدا عن أصحاب القرار (من الأوصياء والناشرين، وغيرهم)، وبعيدا عن مادية النصوص، [...] إنّ المترجم يخلط الأوراق، وفي حالة الثقافات والقيم التي يملكها الآخر والتي يملكها المترجم ذاته، والتي كان يراد بها أن تكون مسيّجة ومثبتة الحدود؛ بينما هي في الأصل ثقافات وقيم دفّاقة ومتحرّكة كما يقول بذلك كلّ من (دوليل وودزورث) (Delisle et Woordsworth، 1995: 193). وتوجد في هذه الفقرة فكرتان أساسيتان: الفكرة الأولى تعني أنّ المترجم يلعب دورا جوهريا في تكوين ثقافته الأصلية، وبمعنى آخر؛ فإنّه يفكّك ويشكلّ ويعيد بناء هوية ثقافته الأصلية من خلال النصوص المترجمة؛ أي بإدخال نصوص الثقافة الأجنبية إلى ثقافته. وتدلّ الفكرة الثانية على أن الثقافة، مهما كان شكلّها، ليست ثابتة وجامدة على الإطلاق؛ بل إنّها تمثّل مجموعة من العناصر المتنوعة والشديدة التعقيد التي تتميز بالتطور والتحرك الدائمين.

وفيما بعد سنعالج مسألة الهوية لما نتناول إشكالية الأخلاقيات؛ لكنّ ما سنتوقّف عنده الآن، سيتعلّق في الوقت ذاته، بدور الثقافة وأيضا بدور المترجم ضمن علاقات الغيرية، ويستحسن أن تفحص هذه الأدوار بدقة كبيرة. وعليه لا يمكن اعتبار إمعان النظر في تطور مفهوم الثقافة بالعمل غير المجدي. وسنكتفي ببعض الملاحظات فيما يمنحه لنا هنا هذا الإطار المحدود.

وقد حاولنا في كتابنا "الترجمة والثقافة"[4] إبراز الأسباب التي جعلت المعارف والنظريات التي تنتمي بفرنسا للعصر الحديث وكذلك للعصر الكلاسيكي لا يمكنها أن تتصوّر اختلاف الأجنبي إلاّ في جذريته الشاملة، وقد نتج عن ذلك ممارسة لترجمة ممركزة الإثنية، هذا مع الاعتراف أنّ هذا النوع من الترجمة قد أدى خدمة في تكوين النثر وبالتوازي خدم ثقافة بلادنا، وهنا يكمن، بالنسبة لنا، الدور المخصب والايجابي لهذا النوع من الترجمة.

فقد تمّ بفرنسا اقتراح تصور كوني للثقافة يشترك مع مفهوم الحضارة خلال القرن السابع عشر ومن بعد خلال القرن الثامن عشر. وقد أراد مفكرو عصر الأنوار نشر ما اعتقدوا أنّه من "حسناتهم"، وكان لديهم اقتناع بضرورة انتفاع الشعوب الأخرى بما أنجزوه، وكان ذلك ممكنا كونهم أبرزوا فكرة وحدة الجنس البشري. وفضلا عن ذلك فالكلاسيكية الفرنسية، هي المرحلة التي دامت مدة أطول؛ أي أكثر من قرنين ونصف. إذ عرف مفهوم الثقافة في القرن التاسع عشر توسعا كبيرا واستمرارية: "هناك تواتر وتواصل للفكر الكوني فيما بين القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر بفرنسا. والثقافة بالمعنى الجماعي، هي قبل كلّ شيء "ثقافة البشرية جمعاء". وعلى الرغم من التأثير الألماني في الفكر الفرنسي، فقد تغلّبت فكرة الوحدة على الوعي بالتنوع [...]"، هذا بالإضافة إلى أنّ " الفكرة الفرنسية لكونية الثقافة تسير منطقيا بالتوازي مع التصور الاختياري للأمة، المنبثق عن الثورة الفرنسية: أي ينتمي إلى الأمّة الفرنسية، حسب "رينان"(Renan) ، كلّ من يتعّرف على نفسه ويجد ضالته في هذه الأمّة وبغضّ النظر عن أصوله" (كوش 1996: 13). وهكذا إذا، قام مفكّرو كونية الأنوار بإنتاج خصوصية فرنسية بعدم النظر في التنوع الثقافي إلاّ في إطار الأمّة والحضارة: ومن الواضح أنّ السياق الأيديولوجي الخاصّ بفرنسا في القرن التاسع عشر قد أعاق ظهور المفهوم الواصف للثقافة؛ إذ تشبّع وبشكلّ كبير العديد من علماء الاجتماع وعلماء الإثنولوجيا بالفكر الكوني لفلسفة الأنوار المجردة، ممّا حال دون تفكيرهم في التعدد الثقافي داخل المجتمعات البشرية إلاّ في حدود الإحالة على "الحضارة". وفي الحقيقة لم يكن السياق التاريخي، ليسمح بالتساؤل حول هذا الموضوع؛ فقد قامت الملحمة الاستعمارية باسم المهمّة "التحضيرية" لفرنسا"(نفسه:23). ويضيف "دوني كوش" أنّه كان على الجميع انتظار قدوم الثلاثينيات ليصبح مفهوم الثقافة مستعملا من قبل علماء الإثنولوجيا. وسيظل مفهوم الثقافة متنافسا مع مفهوم الحضارة لمدة طويلة؛ إذ أقتضى الأمر ثلاثين سنة أخرى لكي يبرز مفهوم الثقافة نهائيا ويأخذ مكانته لدى علم الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا (نفسه.).

وممّا سبق يجب استخلاص ضرورة التشديد على الاستمرارية التاريخية؛ حيث كان لمفهوم الاختلاف الثقافي، وإلى عهد قريب، وجودا نسبيا في اللا مفكر فيه، وفي الوقت ذاته، لدوره في إخصاب الهوية والعمل على الارتقاء بها. ويتعلّق الأمر في هذا الموقف بملاحظة بسيطة. إذ أنّنا بعيدون عن استخلاص النتائج في مجال الترجمة، سواء على مستوى إدخال الملامح الثقافية أم على مستوى تطور عملية إعادة الكتابة للنّصوص المترجمة، أم على مستوى الفحص العلمي والعميق للاختلاف الثقافي. وإذا كانت الترجمة تواصلا متداخلا ثقافيا؛ فإنّها تنقل محتويات الأخبار، كما تنقل الخصوصيات الثقافية؛ أي

ما يميز الآخر وليس الذات؛ بل إنّها تتواصل أيضا بما تمثله بالذات؛ أي من خلال أساليب للترجمة كما سميناها؛ حيث تجلب المعلومات حول ذات المترجم وحول ثقافته في علاقتها مع الآخر.

وعلى هذا الأساس دعونا إلى اعتماد بحث حفري أو أركيولوجية للترجمة، للتمكن من الكشف عن أساليب الترجمة ومن ثمة عن ممارسات المترجمين. ومن المستحسن التأكيد على ضخامة المهمّة وعلى "ثقوب" المعرفة، وبخاصّة فيما يتعلّق بالقرن التاسع عشر وبالقرن العشرين، اللذين نفتقد إلى مراجع تتعرّض لأهمّ العناصر التركيبية التي تميزهما. وقد يسهم هذا العمل في الإبانة عن عدم وجود المطلق في مجال الترجمة، وأن ممارستها والتفكير الذي يدور حولها يتغيران مع تغّير الثقافة، كون الترجمة والثقافة ترتبطان بتطور التاريخ. وعليه؛ فممارسة الترجمة في القرن السادس عشر لا تشبه الترجمة في العصر الكلاسيكي، وترجمة هذا العصر لا تشبه ترجمة القرن التاسع عشر، وهكذا دواليك. ومن جهة أخرى؛ يبرز البحث الحفري أو الأركيولوجي، الكيفية التي تملكها الثقافة في جملتها على توجيه الممارسات وضبطها. ومثلما نجد مترجمي العصر الكلّاسيكي قد انحصرت ممارساتهم، بشكلّ ما، في نظرية التمثّل. وفي هذا الشأن، يبرز (دانيال ميرسي) (Daniel Mercier)، بشكلّ واضح الكيفية التي كان مترجمو العصر الكلاسيكي، وعلى الرّغم من الفروقات التي كانت مسبقا تبدو ذات أهميّة، مجبرين على وضع ممارستهم في إطار التصور الكلاسيكي وبالتالي القيام بترجمة تُؤقلم وتُبذر وتُلحق وتُؤمم، وبمن فيهم "ديدرو" (Diderot) الذي كان بإمكانه انتقاد التصورات الكلّاسيكية (ميرسي. 1995). إذا في هذه الحالة هناك مقارنة بين الثقافة التي تؤسّس العلاقة الكونية مع الأجنبي بناء على معاييرها الثقافية الخاصّة، وبين الممارسة الإلحاقية للترجمة.

لقد قلنا أعلاه أنّ الترجمة هي تواصل متداخل ثقافيا؛ إذ تلعب دورا هامّا في التعامل مع الغيرية في تبادل النصوص على المستوى العالمي. وهذه ظاهرة معروفة بشكل واضح، بقي فقط ما لا نعرفه وهو يتمثل في الكيفية التي تنتقل بها هذه النصوص، والكيفية التي يتمّ التعامل بها مع هذه النصوص ومصيرها لما تنتقل إلى الثقافة الأخرى. إنّنا هنا نعتمد على مفهوم الانتقال الذي أثبته (أنطوان برمان، 1995: 17). ويتعلّق الأمر بوجود فضاء للتبادل بين الثقافات المتقابلة، أو بجانب النصّ الأصلي؛ حيث تتداول ضمن علاقة جدلية "الأشكال العديدة للتغييرات النصّية (وحتى غير النصّية) التي هي ليست موضوعا للترجمة (المرجع نفسه) في هذه الثقافة أو تلك: النصوص النقدية والتحاليل والتعاليق والأفلام والاقتباسات، إلى أخره. وتُمارس علاقات الغيرية في هذا الفضاء الذي تتواجه فيه تصورات المترجم وأيضا تصورات الثقافات المتقابلة، حول موضوع الأدب، ولا يمكن لهذه التفاعلات أن تبقى دون تأثير على العملية الترجمية بذاتها. وتشكلّ مجموع التغيرات النصية، لمّا تحدُّث، ما يسميه برمان "تحويل الأثر الأدبي" (نفسه). ويبدو لنا هذا المفهوم مخصّبا بشكلّ كبير؛ حيث إنّه يجعل فكرة الترجمة التي كانت تعاني من الضيق، تتسع لتشمل فضائها الأدبي الطبيعي في مجمله. ويصدق أنطوان برمان لمّا يؤكّد أنّ: "الترجمة لا تؤثر في هذه اللّغة -الثقافة إلا إذا كانت تلك الترجمة مدعمة ومحاطة بأعمال نقدية وبتحويلات ليست موضوعا للترجمة" (نفسه:18). وضمن التعامل مع الإسناد الترجمي علينا أن لا ننسى إضافة مجمل

النصوص التي تحيط بالأثر الأدبي التي يقع داخل اللّغة الثقافة التي يملكها الآخر، وعلى المترجم أن يكون على علم بها. وممّا يجعلنا نتساءل عن أهميّة الدور الذي ستلعبه الغيرية في التقابل بين النصوص؟ إذا فإنّ مثل هذا الموضوع لا يمكن أن يكون إلاّ زاخرا؛ إذ بإمكانه الإتيان بمعلومات هامة عن التأثير الذي قد تمارسه الثقافة الأجنبية على المترجم وعلى أسلوبه الترجمي وبالتالي على طريقته في إعادة الكتابة.

التاريخ: يقتضي منّا البحث في الراهن اللجوء إلى مختلف الأدوات المفاهيمية التي توفرها لنا الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع والأدب، وهي علوم تسمح لنا بتحليل جدي لكلّ العناصر المميزة للثقافة في مجال الترجمة. وهذا حقيقي فيما يتعلّق بالترجمات الحالية؛ لكنّ الأمور تصعب عندما نلتفت إلى الماضي، بسبب "الثقوب" المعرفية التي اشرنا إليها، مع أنّ بعض المراحل، مثل مرحلة الخائنات الوفيات التي نجدها قد ألهمت كثيرا الدارسين[5].

ومهما كان الأمر؛ فإنّه من الأهميّة بمكان أن يتكوّن تاريخ؛ بل تواريخ للترجمة، كوننا نعاني من نقص كبير في هذا المجال. ويمكن لتاريخ الترجمة أن يخرج المترجمين من الظل والنسيان، وأن يبرز الدور الذي لعبوه داخل العلاقات المتداخلة ثقافيا، وكذلك دورهم في نقل المعلومات المتنوعة، وفي تشكيل النصوص النثرية والثقافات الوطنية، وفي الوساطة أحيانا، ولعل كلّ ما ذكرناه لا يستنفذ الأدوار التي قام بها المترجمون. و، سيساعد البحث التاريخي بالتالي على إعادة الاعتبار للأهميّة القصوى التي يملكها المترجم في التفاعلات الثقافية، وهكذا يمكننا أن نزيل حالة الطمس التي يعرفها المترجم منذ نهاية القرن السادس عشر بفرنسا. ويكمن ذلك في تغيير وضعية "الشخصية الثانوية" و"صفة الخدمية" (برمان 1984) التي ميزت المترجم بظهور وطغيان الصورة الرمزية للكاتب، ممّا جعل من الترجمة نشاطا ثانويا؛ حيث يجب على المترجم الاختفاء وعلى أن ينظر القارئ إلى المترجم كنسخة ثانية للكاتب وعاملا بسيطا لا روح له.

وفضلا عما سبق، تمثل كتابة تاريخ أو تواريخ الترجمة في القريب العاجل، مهمّة من المهام الضرورية التي ستمكننا من صياغة ما يمكن اعتباره نظرية للترجمة وللأدب وهي عملية صعبة المنال ممّا يقتضي منا التوجه إلى ذلك قبل كلّ شيء. وفي الصدد عبر رئيس الفيدرالية الدولية للمترجمين جون-فرانسوا جولي" (Jean-François Joly) سنة 1995، عن وجهة نظره لما تعرض لتاريخ الترجمة قائلا: "لا يمكن لهذا التخصّص الناشئ أن يتوق إلى مستقبل واعد إذا لم يتشرب من مكتسبات الماضي وأن يقوي نفسه بالنماذج العريقة. إنّ كتابة تاريخ الترجمة تسلط الضوء على الشبكة المعقدة للتبادلات الثقافية التي تمّت بين البشر والثقافات والحضارات عير مختلف العصور" (ذكره دوليسل ووودزورت، 1995: 15). ويضيف ذات المتحدّث مستشهدا بما يقوله "ليفين دولست"(Lieven D'hulst): "يمثل التاريخ الوسيلة الوحيدة لاستعادة وحدة تخصّص ما، وذلك بإبراز التمثلات والتقاطعات الموجودة بين تقاليد التفكير المختلفة وبين النشاطات المتباعدة، وبجعل الماضي والحاضر قريبين" (نفسه).

وإذا كان بإمكان تاريخ الترجمة توحيد التنظير في علم الترجمة حقيقة فعلية؛ فإنّه لا يشكلّ مثلما نعتقد، الوسيلة الوحيدة لبلوغ تلك الغاية، كون الترجمة تقع في تقاطع العلوم الإنسانية هذا من ناحية وكون التركيز المستحسن لدى المنشغلين بعلم الترجمة يقع حاليا على التاريخ، ومن ناحية أخرى؛ فإنّ ذلك لا يعني إهمال محاور البحث المرتبطة بالأنثروبولوجيا واللسانيات أو الفلسفة، وفي هذه النماذج الثلاثة كفاية. ولن نجد وحدة داخل الترجمة إلاّ بدراستها من خلال مختلف الجوانب. وهذا بالضبط ما جعل علم الترجمة الذي يستمدّ قوّته الأكيدة من العلوم الإنسانية، يجد صعوبة كبيرة في التشكلّ والتأسيس. وهذا في رأينا يعود إلى قلة الإمكانيات البشرية لا إلى الإمكانيات العلمية.

وفضلا على ذلك؛ فإنّ من المخاطرة اعتبار تاريخ الترجمة "بصفته الوسيلة الفريدة لتوحيد" التفكير في مجال الترجمة كما يعتقد "ليفين دولست". وقبل البدء، هل يمكن التحدّث عن وحدة في مجال التاريخ؟ وعليه لابدّ من طرح المسألة المنهجية؛ إذ لا توجد في الواقع منهجية واحدة في التاريخ، وهو الأمر الذي قد لا يمنع من العثور، في مجال الترجمة، على ذات النقاش وحتى ذات السجال الذي نعثر عليه لدى المؤرخين. وهناك أيضا في مجال الترجمة، مخاطرة أخرى تتمثل في كتابة التاريخ من أجل التاريخ، في ظلّ غياب منهجية علمية صارمة، وتجاهل أنّ الترجمة، هي قبل كلّ شيء، نشاط متداخل ثقافيا.

ونودّ توضيح هذه النقطة الأخيرة بمثال معبر؛ حيث نجد في كتاب "المترجمون في التاريخ" مقالا تحت عنوان " جيمس ايفانس" (James Evans) يقيم عند هنود الكريس بكندا (نفسه: 32-35)[6]. ويروي المقال الكيفية التي ابتكر بها هذا المبشر والمترجم الحروف لكتابة لغة هذا الشعب. ويبدو من غير المجدي التذكير بأنّ هذا العمل قد تمّ في إطار تنصير واسع لهؤلاء الهنود؛ إلاّ أنّ هذا المقال يطرح مشكلاّ كبيرا ويعاني من نقص كبير، كونه ينطلق من فكرة مسبقة وهي أن العمل الذي قام به هذا المترجم لدى هؤلاء الهنود هو "جيد" في حد ذاته، وكأنّ التبشير بالإنجيل جرى تلقائيا ودون عوائق. ومن غرائب الأمور أن يتم تغييب الهنود الكريس عن هذه القصة، كما لم يتم قطعا التذكير بنتائج التنصير وكتابة الحروف على قصصهم وأساطيرهم الخاصة. وفي مثل هذه الحالة بالذات على المؤرخ أن يكون في الوقت ذاته عالما في الإثنولوجيا. وهنا تكمن مسألة أساسية تخضع للنقاش لدى علماء الإثنولوجيا وعلماء الأنثروبولوجيا، أي أين يقع المؤرخ في العلاقة المتداخلة ثقافيا؟ هل هو عند الذات؟ أم هو عند الآخر؟ أم هو بين بين؟ الأكيد أننا لا نملك جوابا لهذا السؤال؛ لكنّ في حالة الهنود الكريس، يمكن لنا أن نستدعي هذا السؤال وهذا أقلّ ما يجب أن نقوم به. وفي الواقع لا يتعلّق الأمر بالثناء على المترجم لكونه مترجما وحسب، ولو أنّ العمل الذي قام به يستحق الإشادة، وإلا وجدنا أنفسنا في علاقة ذات اتجاه وحيد، وما نعتقد أن ذلك قد تمّ تجاوزه. وبطبيعة الحال لابدّ من التساؤل حول أساليب الترجمة المعتمدة من قبل المترجم. أما فيما يخص كتاب "المترجمون في التاريخ"، فلا نريد التوقف عند ما وجهناه من قراءة نقدية للكتاب؛ بل علينا توجيه التحية لهذا العمل وللطاقات المتجمعة ضمن الفيدرالية الدولية للمترجمين على وجه الخصوص، لكي يتكون تاريخ للترجمة أو بالأحرى يشرع في التشكلّ، كما يوضح ذلك المشرفون على الكتاب في المقدمة. وفضلا على ذلك فإن عنوان الكتاب ذاته يشير إلى أنّ الأمر لا يتعلّق بتاريخ ما

بالمعنى الدقيق؛ وإنّما بميادين البحث التي تم اختيارها من كلّ أقطار العالم جاءت لتدلّ على أهميّة دور المترجم وربّما إثارة الرغبة في تعميق البحث في هذا الاتجاه.

النقد: يقتضي السعي لتأسيس علم الترجمة أو نظرية الترجمة المستقبلية أن يكون من المفيد أن ينمو ويزدهر نقد الترجمات الذي سيسمح مع ذلك بفهم الكيفية التي تعامل بها المترجم مع ثقافته الأصلية ومع الثقافة الأجنبية، وفهم العلاقات القائمة بين ثقافة الذات مع ثقافة الآخر ضمن إطار أوسع. يقوم النقد بخطوة تحليلية للنصوص المترجمة بغية الكشف عن أساليب الترجمة وبشكلّ ما عن أشكال تجلي الثقافات، وبالتالي تسليط الضوء على الديناميكية والجدلية التي تجمع بينهما، ممّا يسمح لنا لا محالة بإبراز المنظور التاريخي للترجمة. وبغض النظر عن فردية كلّ مترجم؛ فإنّ الثقافة مهما كانت أو المرحلة التاريخية (النهضة أو المرحلة الكلاسيكية أو المرحلة الرومانسية، مثلا)، ستطبع النشاط الترجمي برؤيتها للعالم. ويسمح العمل النقدي بتحسيس المترجم بهذا الوضع، ممّا يفرض ردة فعل تطرح مسألة موقف المترجم وانخراطه اليوم في للتفاعل الثقافي لعصره.

ولابدّ من التسليم بأنّنا نعيش حاليا أزمة نقد وبخاصّة في مجال الترجمة، ولا يرتبط ذلك بغياب النقاد وإنّما بسبب عدم خضوع هؤلاء النقاد لقاعدة معينة ولم يشكلّوا بعد جنسا مستقلا بحد ذاته، يمكن تحديده بسهولة، ويتميز بسلطة علمية مثلما هو في مجال الأدب. ويسجل (أنطوان بيرمان) ذلك النقص من خلال التعريف الذي يقدّمه للنقد كما يفهمه. إذ يقول: "إذا كان النقد يعني تحليلا صارما للترجمة ولملامحها الأساسية، وللمشروع الذي أنشأها وللأفق الذي انطلقت منه ولموقف المترجم، وإذا كان النقد يعني أيضا وبالأساس توضيح الحقيقة، يمكن القول إذا أن نقد الترجمات قد بدأ في الظهور شيئا فشيئا" (برمان، 1995: 13-14)[7].

ويبدو لنا موقف (أنطوان بيرمان) تجاه النقد (وهو موقف هادئ وغير سجالي، وهو جدير بانتباهنا)، مخصبا لإشكالية التفاعل الثقافي التي نعالجها، كونه يعيد الاعتبار للفعل الترجمي ضمن حقل أوسع ممّا درجت عليه الدراسات المتعارف عليها؛ لكنّه حقل هو خاصّ بالترجمة في حقيقة الأمر. وتشتمل أولا فكرة تحويل العمل الأدبي، كما عالجناه سابقا، عمل النقد في مجمله "ومختلف أشكال التحويرات التي يعرفها الأثر الأدبي" سواء كانت نصية أم غير نصية، ترجمية أم غير ترجمية. كما تحضر أيضا كلّ تفاصيل العمل الجانبي الذي يرافق الأثر الأدبي. وهو ما يسمّيه (أنطوان بيرمان) بـ "الإسناد الترجمي": " ويتضمن الإسناد الترجمي جميع النصوص المرافقة التي تدعمه وتتمثل في المقدمة والتوطئة والتعليق في نهاية الكتاب والملاحظات ومعجم المصطلحات، إلى أخره. ولا يمكن للترجمة أن تكون "عارية" حتى لا تعجز على إنجاز التحويل الأدبي. إنّ الإسناد الترجمي الذي طرحه العصر الكلّاسيكي والعصر الفلسفي (القرن التاسع عشر)، لم يعد كافيا اليوم، وعليه لا بد من إعادة التفكير في هذه المسألة، وهو ما يقوم به بعض المترجمين. وعليه يبرز الإسناد الترجمي الجديد كمسألة ذات أهميّة كبرى وكذلك أهميّة إيجاد إجماع جديد حولها" (نفسه: 68)[8].

وعلينا اليوم أيضا، أن نعيد التفكير في علاقتنا بالنصوص المترجمة، ويمكننا بالتالي استخلاص النتائج لمصلحة الترجمة في الراهن، هذا من جهة، ومن جهة ثانية اعتبار أن لمفهوم "الإسناد الترجمي" إمكانيات عظيمة تمكننا من التطرق لمسألة تعذر الترجمة. وقد سبق لنا أن تناولنا إشكالية المسكوت الثقافي (كوردونيي، 1995: 172-176)؛ إذ أن درجة القابلية للترجمة تتناسب مع درجة معاشرة الثقافات؛ إذ كلّما ضعُفت معاشرة الثقافات نتج عنه تعذر كبير في الترجمة. وبما أننا نعيش ضمن التقليد الثقافي الغربي وفي ظل أسطورة شفافية المترجم، وهو مبدأ انتقدناه وقت صدوره (نفسه: ضمن صفحات 144-146 وضمن مراجع أخرى)؛ إذ أن المترجم لا يجرؤ على تجاوز الكاتب من أجل تشكيل الملحقات الثقافية لترجمته التي تمنح لثقافته مفاتيح يلج بها الأثر الأدبي، وتفتح له في الوقت ذاته فضاءات القابلية للترجمة.

وكما يوجد هنا تقليد للترجمة لابدّ من استرجاعه، يتمثّل في كون المترجم هو من يبني الإسناد الترجمي[9]، أي يعيد، بشكل ما، اكتشاف دور المعمم والمبسّط الذي كان يمتلكه في الماضي؛ لكنّه دور مبني داخل فكر منسجم وضمن حقل واسع لتحويل الآثار الأدبية. إذا نحن أمام مجال شاسع؛ حيث نتمكن من ملاحظة العلاقة الجدلية بين تعميم وتبسيط الوقائع الثقافية والاشتغال المرافق لعملية اختزال فضاء تعذر الترجمة. وعليه يجب دراسة مسيرة الأثر الأدبي عبر مجموع النصوص المترجمة أو غير المترجمة، والنصوص الملحقة التي تقوم بالتعليق عليها وكذلك الاقتباسات، إلى أخره.، كون الترجمة تقع ضمن هذه البؤرة الديناميكية.

وفي هذا الصدد لا يمكن (لأنطوان بيرمان) سوى تسجيل غياب "نظرية عامّة للتحويل الأدبي، أي انتقال الأثر الأدبي من "لغة-ثقافة" إلى أخرى" (المرجع نفسه: 56)[10]؛ لكنّ علينا إدراك وبشكلّ جيد الإمكانية التي يرسمه هذا السبيل للتقدم نحو مقترحات تساعد المترجمين على المواجهة الجدية لترجمة الثقافة.

الأخلاقيات: تكرّس جميع المجهودات التي تبذل في مجال تكوين التصورات النظرية لجعل مترجم هذه المرحلة قادرا على التموقع بوضوح في علاقات الغيرية. وبالفعل، يفرض تاريخ الترجمة والفتوحات المنجزة في إطار العلوم الإنسانية مواقف وواجبات جديدة؛ ولاسيما في العلاقات المتفاعلة ثقافيا ولاسيما في الموقف تجاه الأخر، كون هذا الموقف على وجه الخصوص له دون شك تأثير على النصوص المترجمة.

ولْنَعُدْ الآن، قليلا إلى الوراء، إذا كنّا قد قدّمنا نقدا للإثنومركزية في الترجمة في كتابنا "الثقافة والترجمة"، ليس لما كان تمثله الإثنومركزية آنذاك، ولو أنّنا ندرك ما قد نتج عن هذا التصور من معاناة إنسانية كبيرة؛ بل لما قد يحدثه من سلوكيات لدى المترجمين اليوم. كان علينا القيام، من جهة، بعمل التحسيس حول أساليب الترجمة، ومن جهة ثانية طرح السؤال حول المكانة الحالية للترجمات الإثنومركزية ضمن الفضاء الأدبي والثقافي، أي داخل الحركة الكبرى لتحويل النصوص.

ويبدو لنا مع مطلع القرن الواحد والعشرين، من البديهي عدم استطاعتنا التصرف مع الآخر مثلما فعلنا في الماضي؛ إذ هناك أولا دواعي أخلاقية؛ لكنّ هذه الحجة تتجاوز حدود هذه الدراسة، وثانيا إن الدور المؤسس على مستوى ثقافة الترجمة على وجه الخصوص قد تغير. وبإمكاننا أن نعيد تقديم الحجة بشكلّ مختلف: إن ثقافتنا في علاقتها مع العالم اليوم، هي في حاجة إلى أن تخصبها الترجمة بشكلّ مختلف. إننا نتشبث إذا بالمقاربة التاريخية. وبالنسبة لنا لابدّ للترجمة أن تنخرط في سياق الأخلاقيات التي هي تقوم على توجيه الحركة العامّة لتحويل الآثار الأدبية، وتؤطّر العمل الترجمي على وجه العموم.

وقد اقترحنا في إطار أخلاقيات الترجمة لفظة الانفتاح (كوردونيي، 1995: 153-154 وضمن صفحات أخرى)، لتوصيف موقف المترجم في علاقته مع الغيرية. وتشكلّ هذه اللفظة الجديدة جزءًا لا يتجزأ من عمل التحسيس والتوعية الذي تكلّمنا عنه سابقا. والحقيقة أن جميع الثقافات هي إثنومركزية بشكلّ أو بآخر، مع الفرق، وهو فرق ذو أهميّة كبرى، أن بعض تلك الثقافات تهيمن وبعضها الآخر لا يملك صفة الهيمنة. وبفرنسا نجد أنّ النزعة الكلّاسيكية قد فاقمت من الحركة الإثنومركزية؛ لكنّ كان لهذه الحركة دورا إيجابيا ومخصبا كونها من العناصر المؤسسة لأدبنا وثقافتنا. وتفسر هذه القوة التي كانت في الماضي مدى تأثير الأفكار الكلّاسيكية على اللّغة والثقافة وبالتالي على الترجمة في أيامنا الحالية[11]. وتربك هذه النزعة الموروثة عن التاريخ الترجمة في عملية انتشارها الثقافي الذي لا غنى عنه، وللخروج من هذه الممارسة الإثنومركزية التي تعمّمت، ولرسم سبيل آخر بوضوح، ابتكرنا إذا مفهوم الانفتاح.

وعلى المترجم الذي يختار هذا التوجه أن يضطلع بموقف ترجمي يتمثل في إثراء ثقافته الأصلية بإبراز ثقافة الأخر وجعل أساس عمله الترجمي التعامل مع ثقافة الآخرين باحترام. وهنا يكمن مشروعه في الترجمة؛ إذ عليه بترجماته المتتالية، استجلاب العناصر الثقافية المؤسسة والجديدة لثقافته الأصلية ممّا يسمح بالتعامل بشكلّ هادئ مع علاقات الغيرية وضمن معرفة صادقة تمكن الجميع من تحسين التواصل والتفاهم التفاعلي للثقافات في المستقبل.

ولعلّ هذه الأمور هي التي دفعت بنا إلى تسمية هذا النوع من النشاط بالترجمة-الانكشاف، بسبب أنّ هناك آثار أدبية في حاجة إلى إعادة الترجمة، كونها لم تعرف إلى الآن سوى ترجمات ملحقة. وكما هو مطلوب أيضا تقديم نصوص مترجمة للجمهور قد تمكّنه من اكتشاف حقيقة الأثر الأدبي، مع التأكيد على أنّ الحقيقة لا يمكن أن تكون إلاّ نسبية، وذلك لارتباطها بالأدوات المفاهيمية التي نملكها في الراهن. إنّ هذا التحوّل التاريخي الذي يتمثل في الخروج من الانغلاق داخل الذات، وهو انغلاق ارتبط بالنزعة الإثنومركزية، للتموقع في نقطة ليست ثابتة مع ذلك، والتواجد في مكان ما مع الأخر، لا يعني التخلي عن الذات وعن الهوية، كما يعتقد بعضهم الذين انتقدوا مواقف (هنري ميشونيك) و(أنطوان بيرمان). وهذا ما ذهب إليه (جون-روني لادميرال) (Jean-René Ladmiral) إلى حدّ القول بـ"الحقد على

الذات"، أي: "نقول إنّنا نرى في ذلك علامة على الحقد على الذات الذي يبدو لنا مرضا للثقافة الغربية المعاصرة" (لادميرال 1997: 133)[12].

ويظهر لنا أنّ هذه الفكرة فيها تسرع كبير؛ لكنّ على العكس من ذلك؛ فإنّنا نجد (أنطوان بيرمان) أكثر اتزانا في هذه المسألة. فهذا الأخير لا يثبت انتمائه لنظام ما بل يعترف بحرية المترجم، ويقر له "بكلّ الحقوق" (1995: 94)[13]؛ وإنّما يحدد الفعل الترجمي في إطار الأخلاقيات، ممّا يعني أنّه على المترجم أن لا يخفي كيفية اشتغاله الترجمي على النص الأصلي. ويوصي (أنطوان بيرمان) المترجم بتبليغ القارئ إذا أقدم على التلاعب بالنص (ليس بالمعنى السلبي للكلّمة)، أو شوّهه أو كيّفه، وتكفينا هذه الأمثلة الثلاثة في التعامل مع النص، وعلى المترجم أن لا يخفي ذلك، وعلى القارئ أن يكون على علم بنوع الترجمة التي يتعامل معها.

والجدير بالذكر أنّ ما هو حقيقة محل جدل هنا، يرتبط بمسألة الهوية الثقافية، وفي الواقع إننا نشاهد بروز ممارسات هوياتية رائجة، والتي يرى فيها "دونيس كوش" (1996: 83) أنها "امتداد لظاهرة تمجيد الاختلاف التي ظهرت في السبعينيات". ونستطيع أن نتفهم هذه الحركة المتواترة مثل البندول؛ لكنّ وضع في مجال الترجمة، الاختلاف في المقدمة أو نقد الإثنومركزية لا يعني بأي حال من الأحوال الاعتداء على الهوية، وفي هذه الحالة لابدّ من الإقرار على أن النقد ليس جديرا بالقبول.

في البداية لابدّ من القول إنّ مفهوم الهوية ليس جامدا، فالهوية متنوعة ومتموجة، وصياغتها دائمة ومستمرة. كما لا يمكن تصوّر الهوية خارج العلاقة القائمة مع الآخر، ويضيف (دونيس كوش) أنّ "الهوية هي مبني يتم إعداده ضمن علاقة التقابل بين مجموعة ما ومجموعات أخرى؛ ؛ حيث الاتصال قائم بين المجموعة وباقي المجموعات" (المرجع نفسه: 86). ممّا يدل على أهميّة موضوع الهوية في هذا المجال؛ إذ أن الترجمة هي التي تبني جوهر الثقافات. إن ترقية حركة ترجمية ترافع لصالح الاختلاف الثقافي دون شروط مسبقة في هذه المرحلة يعني الإسهام في إضافة لبنة في البناء العصري للهوية. ويمكن بذلك جعل التواصل المتداخل ثقافيا أكثر فعالية، وبالتالي إقامة العلاقات بين الثقافات وفق المبدأ الذي يقول: كلّما عرفت الآخر من خلال نصوصه، تعرّف علي أكثر من خلال نصوصي، وهكذا سنتفاهم أفضل.

وعندما انتقد (ميشونيك) حبّ اللّغة المبني على أساطير قديمة وعقيمة بالنظر للتطور الموفق لثقافتنا، مثل الوضوح والصفاء والعبقرية وهي ميزات مفترضة للغة الفرنسية، كان يرمي بذلك إلى تخليص هذه اللّغة من الموقف الدفاعي السلبي والعقيم الذي يميزها. وهنا يقتضي الأمر عدم الدوران حول الذات وإنما إدماج الغيرية بشكلّ إيجابي. ولهذا يقترح (ميشونيك) (1977: 210) "تغيير الهوية بواسطة التنوع". وهذا لا يعني التراجع أمام "الهويات المتقلبة"، هذا مع الافتراض أنها كذلك، كما يحدثنا "جون

– ريني لادميرال" (1997: 133). إنّ العكس هو الذي يجب أن يكون؛ حيث لابدّ من التحديق بدقة في العالم الراهن ودون خوف ومرافقة التحولات التي يعرفها على نحو ملائم.

وإذا كان تطوير الترجمة- الكشف مرغوب فيه اليوم، فلأننا سجلنا نقصا كبيرا في ثقافتنا لهذا النشاط، ولأننا على وعي تام بالدور التجديدي والمخصب الذي قد تلعبه. وهذا لا يعني أننا نرغب في أن تقصي هذه الوثبة الترجمية أنواعًا أخرى للترجمة؛ بل على العكس من ذلك. ولهذا اشرنا في السابق الفائدة التي قد يجنيها المترجم في استعادة دوره بصفته مروجا للثقافات وهو دور فقده قبل اليوم. وبإمكاننا أن نواصل على هذا النهج وأن نقترح إعادة الاعتبار في البداية للتمارين التي انتمت للحقل الترجمي في تاريخنا داخل المؤسسة المدرسية، ونعني بذلك المحاكاة والحشو والتعظل والاقتباس مثلا. ومهما كان نوع الترجمة الممّارس أو المقترح فما نريد بوضوح ومن الآن فصاعدا هو أنّ تكون الأمور معلن عنها وبصراحة.

المهام: أمّا فيما يتعلّق بالترجمة-الكشف، فإذا كانت هذه الأخيرة تنوي إبراز الآخر؛ فإنّه يتعيّن عليها أيضا أن تشكلّ ثقافة الذات، ضمن الحقل الواسع للعلاقات المتفاعلة ثقافيا. وفي هذا الصدد، يمكن أن نقول إنّها تسهم في بلورة الظاهرة الإثنومركزية، مع الفرق الكبير: أنّ صياغة الأنا وبلورته كانت تتم في الماضي عن طريق طمس واسع للآخر؛ لكن منذ مدة فالأمر أصبح مختلفا إذ يتمّ ذلك بإظهار الآخر وإبرازه. ولقد أشرنا أعلاه أنّ ظاهرة الإثنومركزية هي موجودة، وبدرجة متفاوتة، في كلّ الثقافات؛ وحيث يراد بالإثنومركزية أن تخضع هذه المرة "لاستعمال منهجي" داخل الثقافة الغربية كما يعبر عن ذلك (دونيس كوش) (1996: 116). ويقوم المؤلّف ذاته (المرجع نفسه) فيما بعد بالإحالة على (بورديو) (Bourdieu): "أنا مقتنع أن شكلا معيّنا من الإثنومركزية، قد يكون شرطا لفهم حقيقي إذا أشرنا إلى مرجعية التجربة الخاصّة والممارسة الخاصة: وشريطة أن تكون تلك الإحالة واعية ومتحكّم فيها [...]. إذ يصعب التعرّف على الذات التي لا نريد معرفتها في الآخرين الذين يبدون غرباء جدّا. لنتوقّف قليلا عن التفكير من خلال الإسقاطات الأكثر أو الأقلّ مجاملة؛ إذ إنّ علم الاجتماع وعلم الإثنولوجيا يقوداننا إلى اكتشاف الذات بواسطة النظرة الموضوعية للذات ومن خلالها كما تقتضي بذلك معرفة الآخر[14]". فالحركة الترجمية التي تحدّد نفسها في إطار انفتاح واعٍ ومتحكّم فيه ليست مناقضة للهوية؛ بل بالعكس، علينا أن ندرك جدلية الذات والأخر، والهوية والاختلاف، ضمن حركة تتجه نحو وعي واضح لجوهرهما ولعلاقتهما المتداخلة، على أن لا يكون ذلك على حساب هذه أو تلك من الثقافتين المتقابلتين.

نختم بالتأكيد على أنّ الدور المشكلّ للترجمة على مستوى الثقافة هو في الواقع غير محدود ولانهائي، ولهذا ندرك جيدا الآن سبب امتلاك الترجمة لمهام كبيرة لابدّ لها من القيام بها. والترجمة من خلال إنجاز تلك المهامّ الكبرى التي تضطلع بها تسهم في المحدودية البشرية وفي كمال اللّغة، اللامتناهيتين. ويعيد طرح هذا الشكل من التصورات وبشكل إيجابي مسألة تعذّر الترجمة التي لن تعتبر

بعدئذ حتمية. أمّا فيما يخصّ إعادة الكتابة في الترجمة، على المستوى اللّساني؛ فإنّه متعلق بالمعنى أو بالدلالة؛ لكنّه يرتبط بشمولية العلامة من حيث المعنى وامتلاك الدلالة. ولا يمكن له أن يكون مرتبطا باللّغة الهدف أو اللّغة المصدر، وهو تصنيف ثنائي بسيط لا نقرّ به، فعملية إعادة الكتابة ليست ترجمة للّغة؛ لكنّها هي ما يصنعه الخطاب باللّغة. وتتوسط الترجمة فيما بين الثقافتين، وتتكّور ضمن علاقة جامعة بينهما، أي بين ما يقوله نصّ الآخر وما استنطقه في ثقافتي في صلة ضغط ثقافي يتمّ بين اللّغة والخطاب، وهو ضغط يتغيّر باستمرار وغير قابل للحجز.

المراجع:

Berman, A. (1984) : *L'épreuve de l'étranger. Culture et traduction dans l'Allemagne romantique*, Gallimard, coll. «Les Essais ».—— (1995) :*Pour une critique des traductions : John Donne*, Paris, Gallimard, coll. «Bibliothèque des idées ».

Cordonnier, J.-L. (1995) : *Traduction et culture*, CREDIF/Hatier-Didier, Coll. LAL.

Cuche, D. (1996) : *La notion de culture dans les sciences sociales*, Paris, Éditions La Découverte, Coll. Repères, no 205.

Delisle, J. et J. Woodsworth (sous la dir. de) (1995) : *Les traducteurs dans l'histoire*, Les Presses de l'Université d'Ottawa/Éditions UNESCO.

Foucault, M. (1966) : *Les mots et les choses*, Paris, Gallimard, coll. « Bibliothèque des sciences humaines ».

Ladmiral, J.-R. (1997) : «Aspects interculturels de la traduction », *in : Hommage à Hasan-Ali Yücel — La traduction : carrefour des cultures et des temps*, sous la dir. du Prof. Dr Hasan Anamur, Istanbul, Université technique de Yildiz.

Mercier, D. (1995) : *L'épreuve de la représentation. L'enseignement des langues étrangères et la pratique de la traduction en France aux xviie et xviiie siècles*, Besançon, Annales littéraires de l'Université de Besançon, no 589, Diffusion Les Belles Lettres.

Meschonnic, H. (1973) : *Pour la poétique II*, Paris, Gallimard, 1973.—— (1997) : *De la langue française*, Paris, Hachette.

Mounin, G. (1963) : *Les problèmes théoriques de la traduction*, Paris, Gallimard, coll. «TEL», no 5.

الهوامش:

- * أستاذ بجامعة فرانش-كونتي، بزانسون، فرنسا.
- ** أستاذ بجامعة أحمد بن بلة، وهران 1، الجزائر.

[1] هذه الدراسة هي عبارة عن نسخة معدلة ومصححة لمحاضرة تم إلقاؤها بمناسبة "الملتقى الدولي الأول الموسوم بالاوجه الثقافية للترجمة" الذي نظمته جامعة يلدز التقنية، اسطنبول، (تركيا)، يومي 22-24 أكتوبر 1997.

[2] نهدف من خلال هذه الدراسة إلى تعميق وفحص من خلال زاوية أخرى لمفاهيم قمنا بإدخالها في كتابنا: الترجمة والثقافة، جون-لويس كوردونيي، 1995.

[3] وللاطلاع على نظرة شاملة لمفهوم الثقافة، أنظر كتاب "دونيس كوش" : مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، منشورات "لا ديكوفرت"، باريس، 1996.

[4] أنظر للجزء الأول من الكتاب: من أجل أركيولوجية للترجمة.

[5] نشير بالمناسبة إلى صدور كتاب جديد حول الفترة الكلاسيكية تحت عنوان: الترجمة في العصر الكلاسيكي، مجموعة من الدراسات جمعها كل من "ميشال بالار" (Michel Ballard) و"ليفين دولست"(Lieven D'hulst) ، المنشورات الجامعية للسبتنتريون، ليل، فرنسا، 1996.

[6] هذا المقال حرره "جون دوليسل" بالتعاون مع "بيار كلوتي" (Pierre Cloutier).

[7] التشديد من قبل المؤلف.

[8] أنظر الهامش رقم 70 والتشديد من قبل المؤلف.

[9] وفي هذا الصدد لا يمكن الخلط بينه وبين "إسناد الفعل الترجمي" (بيرمان 1995: 68)، وهومصطلح يشير إلى عمل البحث التوثيقي للمترجم، وكل القراءات الضرورية التي يقوم بها المترجم لضمان نجاح الترجمة.

[10] التشديد من قبل المؤلف.

[11] وحول المسبقات الكلاسيكية السارية المفعول إلى الآن مثل: الوضوح والعبقرية والصفاء، مثلا، ينظر "ميشونيك" (1997).

[12] التشديد من قبل المؤلف.

[13]التشديد من قبل المؤلف.

[14] هذه الإحالة مأخوذة من عند "بيار بورديو": "حوار مع "ألبان بنسا" (Alban Bensa): عندما يأخذ (الكناك: أي الميلانيزيون) الكلمة، ضمن مجلة أعمال البحث في العلوم الاجتماعية، رقم 56، مارس 1985، ص.79.